نصوص في عمارة المدينة

«١-٣»

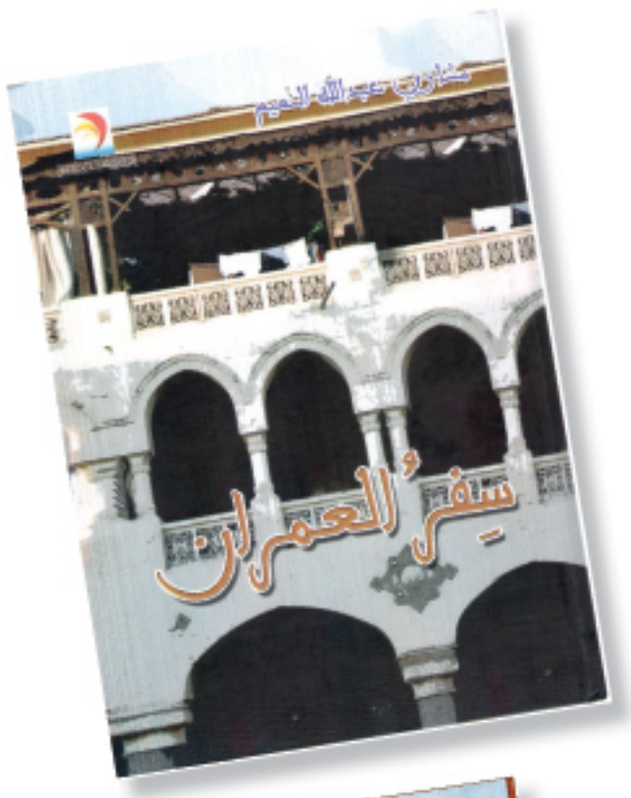

> في عمارة المدينة

احتلت المدينة العربية مكانة مهمة، تاريخيا في الدراسات الاستشراقية وحديثا في التاريخ المعماري والتأريخي العربي وبعض الدراسات التي تقاطعت مع الدراسات التخطيطية والديموغرافية والإسكانية وسواها. وفي الوقت الذي راحت الأقلام الكلاسيكية، وبالذات في المرحلة الاستشراقية تعمل في توثيق ملامح من المدن العربية – الشرق أوسطية، أو مدن المسلمين أو كائنا ما كانت تسميتها – توثيقا أدبيا وتصويريا تعبيريا لتنقل مشاهدات الرحالة الغربية وتدون بالصورة انطباعاتهم عن الشرق كما شاهدوه ووعوه، ومن قبلهم كان الرحالة العرب والمسلمون كابن بطوطة ونظريات ابن خلدون الذي اسس لعلم الاجتماع الحضري، راحت بعد هؤلاء بقرون وعشرات العقود فئات من الباحثين العرب المسلمين الذين افتتنوا بفكرة «المدن العربية» وتحديدا فكرة «أسلمة المدينة» والخلط بين «علم العمران» كما أرخ له ابن خلدون ليصبح، خلطا، «فقه العمران»، ولتصبح الدراسات التاريخية، أو «اللاتاريخية» في المدينة العربية حكرا على نصوص ثيولوجية يراها بعض الباحثين من خلال منظار – يصفه البعض – بأنه منظار ضيق ملتصق بالنص أكثر من العقل وتطورات العصر.

د. وليد أحمد السيد

والافت أن معظم الدراسات التاريخية الملتصقة بما يسمى «فقه العمران» عانت وما زالت من «توقف فكري زمني» لم تضف لصحائف كتبها إضافات معرفية مهمة، إذ توقفت عند حدود نهايات الثمانينيات وبداية التسعينيات. وثمة مجموعة من الكتب الصادرة حديثا لمجموعة من الباحثين والمفكرين في إطار المدينة العربية أو مدن الشرق الأوسط وترجع زمنيا لبداية التسعينيات لعرض واحد من أهم الكتب التي راجعت الفكر الاستشراقي وقدمت نظرية في قراءة المدن العربية هو كتاب «مدن وخلفاء» لنزار الصياد. وفي قراءتنا نرجع زمنيا من كتاب صدر حديثا عن دار النشر العالمية (TASCHEN) هذا العام، ثم نعرج على كتاب الأستاذ الدكتور مشاري النعيم الصادر عام ٢٠١٠ بعنوان «سفر العمران» والذي يتناول فيه في مساحة مفاهيم مدينية ويطرح رؤى وأفكارا بعرضها عرضا موضوعيا لقراءتها بذهن متفتح للقراء قراءة «زمنية» قابلة للتجديد بمرور الوقت بخلاف معظم الدراسات الكلاسيكية «اللاتاريخية» التي اجتهدت في تقديم الأفكار وتأطيرها ضمن «نظريات» أو «نمذجتها» بما يسهل سقوطها، أي الأفكار، بسقوط النظريات التي تشكلت بها. من قراءتنا أيضا هناك دراسات مهمة قدمت في مجلدين حول «المدينة في العالم الإسلامي» والصادرة عن دار نشر (BRILL) بليدن بهولندا عام ٢٠٠٨ وهما من تحرير مجموعة من المؤلفين، ومن إصدار ذات دار النشر قبل عام من المجلدين أي عام ٢٠٠٧، وهو كتاب موسوعي يجتهد في تقديم المدن العربية وتوثيق معلومات تاريخية عنها رأينا تقديمه للقارئ المهتم بالتاريخ العربي للمدن المختلفة على امتدار العالم العربي الكبير. أما الكتاب الآخر فهو من تحرير الدكتور ياسر الششتاوي وعموما يتضمن دراسات في فصول حول مدن عربية منها اليمن ودبي ودمشق سنقدمها في إطار هذا المراجعة – ليس عرضا سرديا وإنما بقراءة نقدية يمكن للقارئ المهتم من التحقق من الأفكار الأساسية التي تقدمها لكنها لا تغني عن الرجوع لهذه المؤلفات وقراءة المزيد، لكن مراجعتنا تقدم رؤية منهجية للقارئ لتناول الأطروحات الواردة بالكتب الخمسة موضوع مراجعتنا – وهو هدفنا الرئيس من هذه المراجعة؛ بتأسيس نواة لقراءة المادة العلمية قراءة نقدية موضوعية بعيدا عن النقل والتأثر بالقراءة النصية الحرفية التي سادت وتسود في العالم العربي.

ختاما لا ننسى الإشارة في افتتاحية قراءتنا لهذه الكتب أن المؤلفات والمؤلفين تحروا دقة في اختيار الألفاظ – فيما بعض الباحثين المعاصرين – ولم ترد لفظة «المدن الإسلامية» في هذه المؤلفات، إلا حديثا بما يلقي بظلال كبيرة حول هذا المصطلح واستعماله الدارج من قبل فئة قليلة مقابل جموع الأكاديميين والمفكرين والمنظرين في هذا الموضوع، وبما يحيل ملف «فقه العمران» للمراجعة والمساءلة الأكاديمية.

مدن العالم

نفتتح هذه المراجعة بقراءة هذا الكتاب الذي تمت إعادة طباعته مؤخرا من قبل دار النشر العالمية بلندن (TASCHEN)، والذي يحوي أكثر من ٣٦٣ لوحة ملونة مأخوذة من المسح التوثيقي التصويري الذي قام به (Georg Braun) لمخططات المدن ومناظر تصور المدن التاريخية في أوروبا وأفريقيا وآسيا ووسط أميركا، والتي تظهر بها تفصيلات دقيقة. وبالإضافة لذلك يحوي الكتاب نصوصا أصلية وتعليقات مهمة نشرت هذه لأول مرة في العام ١٥٧٢. القس (Georg Braun) المولود في مدينة كولون بألمانيا حرر على مدى أكثر من ٤٠ عاما في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر أكثر من ٣٦٣ لوحة تمثل المدن المهمة في العالم القديم مرسومة بمنظور عين الطائر بدقة وألوان تبعث على الإعجاب وتقدم مسحا شاملا للحياة الحضرية في بداياتها في العالم قاطبة. وقد سار على خطى (Georg Bruan) أكثر من مائة فنان على مدى العصور اللاحقة وقدموا الكثير لهذا المشروع المهم، لكن أهم المساهمين الرئيسيين لهذا المشروع كان الرسام (Franz Hogenberg).

من المدن المهمة التي يصورها الكتاب بشكل متميز ضمن هذه اللوحات المتناسقة والتاريخية مدن عربية مثل مدينة القدس التي يصورها كمدينة مسورة بمنظور ثلاثي الأبعاد وتحيط بها التلال والسهول والمباني ذات الطبيعة البرجية، وداخل أسوار المدينة يصور معالمها التاريخية والأحياء السكنية وبوابات القدس الدروب المؤدية إليها مع دليل توضيحي بين خريطة ووثيقة تاريخية مهمة للمدينة استنادا لنصوص ثيولوجية صورت المدينة. كما تظهر بوسطها تصويرا ثلاثي الأبعاد لقبة الصخرة المشرفة وكنيسة القيامة. لكن النصوص المرفقة تحتوي بعض المغالطات التاريخية والحديثة بشأن المدينة المقدسة وكان النص يجتهد في تقرير «أن المدينة كانت عاصمة دولة إسرائيل منذ العام ١٩٥٠ميلادية» وهي من النصوص التي تبين قصور الدراسات العربية والبحث العربي في هذه المدينة المقدسة المهمة للمسلمين وحيث باتت الكتب العالمية المتداولة تكرس بعض المعلومات المغلوطة في ظل غياب شبه كامل من الدراسات «اللاتاريخية» في المدينة العربية التي غرقت في نصوص شرعية، ومحاولة تكريس ما يسمى «بفقه العمران»، وأهملت أو كادت واقع المدينة العربية المقدسة – القدس أو بيت المقدس لأهميتها في تقديم قضية عادلة للعرب والمسلمين، فضلا عن أهميتها من ناحية أكاديمية بحثية مجردة. ومن المدن المهمة في العالم العربي التي يقدمها الكتاب مدن دمشق وتونس والجزائر (مدينة الزهراء) وقرطبة وإشبيلية – وجميعا مقدمة ضمن ذات التوضيح بمنظور عين الطائر مع بيان أهم معالمها وبنص مصاحب كما ورد في الوثائق التاريخية الأصلية.

جدير بالذكر أن الكتاب يصدر بعد أكثر من أربعة قرون حين تم إصدار المجلدات الأصلية الستة في مدينة كولون، والمحفوظ في متحف (Historische) بفرانكفورت. الكتاب يعد وثيقة تاريخية مهمة مفتوحة للاجتهاد والقراءة وإعادة القراءة، ليس فقط من قبل المهتمين في علم العمران الحضري حيث تكشف الرسومات الكثير من خصائص المدن القديمة وملامحها، لكن الكتاب يكتسب أيضا أهمية كبيرة لعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وتخصصات أخرى كونه يبين تفاصيل متنوعة منها أشخاص بملابس تقليدية وسفن قديمة وعربات تجرها الثيران ومناظر قاعات محكمة وتفاصيل تضاريسية للمدن – وكلها تعكس واقع الحال التاريخي للمدن، والأهمية السياسية والاقتصادية للمدن. فالرسومات التاريخية كانت ولا تزال محط انظار الباحثين الجادين في العالم الغربي لقراءة ما لا توضحه الكلمة وبعيدا عن جمود النص وتأويلاته التي غرق بها البحث الأكاديمي العربي في جانب منه، رغم أهمية الإثنين.

قراءة في «سفر العمران»

كتاب «سفرُ العمران» يضع ملامح مائة نص نقدي كتبها الدكتور النعيم خلال أكثر من عقد كامل، تمثل رمزيا الألفية الثالثة واستشراف آفاق العمارة العربية المعاصرة وروافد التغيير للمستقبل بقراءة الواقع قراءة نقدية هادفة. والنصوص التي يحتويها الكتاب نشرها الدكتور النعيم على مدار عقد منذ التسعينيات في مقالات معمارية متخصصة على صفحات «البناء»، وفي زاويته الأسبوعية في «الرياض»، والتي يتناول فيها قضايا تأملية متأنية في النقد والعمارة العربية والمكان العربي وثقافة العمارة والذاكرة والتراث والهوية والأخلاق والعولمة والسياسة العمرانية وطقوس المدينة التي تجسدها مظاهر الاحتفالات ورمضان واحتفالات ما قبل العيد ويوم العيد ويرى أن هناك مظاهر اجتماعية مدينية تبحث عن هوية، وأن المدينة تمثل مظهرا احتفاليا، كما يرى أن الحج هو صورة لعمارة القيم. بالإضافة إلى موضوعات غير مسبوق طرحها مثل انطباعات الناقد حول توحش المدينة والفضاء الإنساني والعمارة والسينما والعمارة والناس ورؤية الكاتب في مسائل اشتباكات مع المجتمع المدني وظاهرة الفقر المدينية، لكن روعة التصوير الأدبي والبياني تتجلى في مقاله «قلوب مبصرة ترى المكان» في موضوع يعالج المسكن تضمن الكتاب نصوصا في «مساكن للفقراء تزيد من الفقر»، و«المنزل عندما يخرج عن النص».

كما يعالج الكاتب أطروحات نقدية في القيم الجمالية وإشارات سوسيولوجية حول التصميم وصناعة الشكل للمادة. وفي جوانب العمارة الاقتصادية يتطرق الكاتب لمفاهيم مؤسسات المال والمدينة وما يعرفه على أنه «سلعنة» العمارة وتجميد المستقبل ومدن «مرسملة» وعمارة الطمع وخصخصة المدينة. في التقنية والاستدامة يطرح الدكتور النعيم مفاهيم أن الشكل يتبع المعلومات على غرار المقولة الشهيرة في العمارة أن «الشكل يتبع الوظيفة»، ويقدم لحضارة الضوء والعمارة الراقصة. وفي موضوع محوري للعمارة هي الوظيفة، يعرج على مفاهيم المرونة والتوازن ويطرح تساؤلات جدلية من خلال نصوص «بيوت للثقافة أم عروض للعمارة»، ومفاهيم الترفيه وعدالة المدينة ويناقش أشكالا معمارية للتعليم. والعمارة كما يراها الدكتور النعيم هي تعليم وممارسة، ولذلك يطرح تصورات نقدية في فخ التقليد في التعليم المعماري ويتساءل هل التعليم المعماري هوية واحدة أم هويات متعددة ويقدم أطروحة نقدية في طبقية العمارة مقابل الطبقية الاجتماعية. في النصوص التي يختم بها الكتاب يعالج مسائل «اللامنتمي» وإشكالات النقد المجتمعي وقضايا تحول المجتمع العربي والنقد التخطيطي وتخطيط بلا تخطيط.

تميز الطروحات النقدية لنصوص هذا السفر العمراني تؤطرها مقاربات الناقد التي تنزع نحو تقديم النص للقارئ تاركا له المجال كاملا لإعمال فكره في الأطروحات النقدية والتوافق أو الخلاف معها. فالنصوص تطرق منهجية عقلية غير ملزمة تدع الباب مفتوحا على مصراعيه أمام القارئ على اختلاف منهجه أو خلفيته وإطاره الفكري والثقافي لقراءة وإعادة قراءة النص. وهذا يضفي على النص قوة «لا زمنية» تعطيه بعدا إضافيا وعمرا أطول من الكثير من الكتب والنصوص التي تجتهد لتقديم فرضيات أو «نماذج» متكلسة يسهل دحضها بمرور الوقت وبعضها يسقط تلقائيا كورقة التوت الجافة إذ تتقادم الأسس التي تقوم عليها ويثبت بطلانها بمرور الزمن. النصوص النقدية التي تروي ذاكرة مكان ومقابلات لرموز العمارة العربية المعاصرة، وبحكم اطلاع الكاتب الواسع بأبرز ما يجري على الساحة، تجعل من مسألة «نقض» نقده مسألة صعبة لأسلوب الكاتب في تقديم أفكاره والذي ينزع نزعة تأملية عقلية أكثر منه فرضا جامدا أو نقلا لنصوص غيره. فالكتاب بمجمله يمثل سلاسل من الأفكار وأطروحات متعددة لا أطروحة واحدة وكما هو الدارج في الخطاب المعماري العربي والعالمي على حد سواء. فهو منهج تركيبي عميق يقوم على صوغ الأفكار ودون الحاجة لكبير عناء في «نمذجتها» أو «بوتقتها» ضمن إطار ايستمولوجي مغلق، بل هو تقديم ذكي لفهم عميق ومتأن وعبر فترة زمنية طويلة لناقد معماري موسوعي متمرس له باع وذراع في الخطاب المعماري العربي، يخاطب عقل القارئ بأسلوب يصعب محاكاته إلا لمن له طول فكرة وعميق خبرة في النقد المعماري والإشكالات التي تعانيها العمارة العربية في أسس الهوية ومتعلقات الاجتماع والثقافة والإدارة والمدينة.

ولقراءتنا في هذه النصوص بقية